3- تأثير الاستشراق على اللغوين العرب(المدرسة الإنكليزية مثالا)

م. د. رحيم مجيد راضي

المديرية العامة للتربية في محافظة ذي قار

Raheem.majeed@utq.edu.iq

تاريخ الاستلام: 6/5/2022 **تاريخ القبول: 24/5/2022**

مُلخصُ البحثِ

بلغ اهتمام المستشرقين بدراسة الإسلام ذروته في إصدارهم (دائرة المعارف الإسلامية) التي تعد من أكبر الدراسات الاستشراقية للإسلام، وأعظمها خطورة خلال القرن العشرين، بل هي تمثل خلاصة جهود المستشرقين في الدراسات الإسلامية خلال القرون الميلادية الثلاثة الأخيرة. وتشير دائرة المعارف الإسلامية إلى أن دراسات المستشرقين للإسلام لم تكن مجرد جهود فردية، بل كونت أيضاً اتجاهاً منظماً يسير وفق خطط تشرف عليها مؤسسات علمية إذ لم يكن إصدار الدائرة عملاً فردياً يشرف عليه بعض المستشرقين المنتمين إلى بلد واحد أو إلى لغة واحدة، بل كان عملاً جماعياً دولياً عقدت له المؤتمرات، وتنادى من أجله المستشرقون من شتى دول أوروبا.

Research Summary

Orientalists' interest in the study of Islam reached its climax in their publication (The Circle of Islamic Encyclopedia), which is one of the largest and most dangerous Orientalist studies of Islam during the twentieth century. Rather, it represents a summary of the efforts of Orientalists in Islamic studies during the last three centuries AD. The Islamic Encyclopedia indicates that Orientalists' studies of Islam were not just individual efforts, but also formed an organized trend that proceeds according to plans supervised

by scientific institutions, as the issuance of the Department was not an individual act supervised by some Orientalists belonging to one country or one language Rather, it was an international collective action for which conferences were held, and Orientalists from various European countries called for it.

المقدمة

يشير مصطلح الاستشراق إلى ثلاثة معانٍ منفصلة ولكنها متشابكة: إلى الحقل الأكاديمي، إلى رؤية للعالم، وتصورات، ونموذج فكري قائم على التمييز الإبستمولوجي والأنطولوجي بين الشرق والغرب كأداة هيمنة سياسية قوية ، تمثل السمة الأساسية في الاستشراق. إنه تحيُّز خفي ومستمر محوره تفوق الحضارة الأوروبية ضد الشعوب العربية الإسلامية وثقافتها ، تُشتق تلك النظرة من التصورات الغربية عما يمثله الشرق (التصوير الثقافي)، واختزال الشرق إلى جوهر خيالي للشعوب الشرقية ، وأماكن الشرق ، تهيمن تلك التصورات الثقافية على خطاب الشعوب الغربية مع الشعوب غير الغربية ، تصف تلك التصورات الثقافية الشرقي بـ (البدائي، اللاعقلاني، العنيف، المتطرف، الاستبدادي، وأنه أدنى من الغرب، وبالتالي لا سبيل إلى التنوير إلا استبدال القيم الرجعية بالأفكار المعاصرة التقدمية ، التي إما أن تكون غربية أو متأثرة بالغرب.

يجدر بنا التركيز على الاستشراق الإنكليزي ، وتحديد إطار عمله ، وأهم الشخصيات المؤثرة التي لها تأثير على الجيل الاول من العرب الذين اهتموا بالتراث تحقيقًا ، وتحليلًا وإبداء الآراء التي نسبوها إلى اصحابها ، والتي ولم تنسب ، ولكن الدراسات اللاحقة أوضحتها، وسوف اختصرها بثلاثة مستشرقين هم الاكثر تأليفا وتأثيرا في المدرسة الإنكليزية، وثلاثة من العرب الذين بان التأثير عليهم بشكل كبير ، وبرغم أنَّ هناك مشكلة ؛ لأن هناك تأليفا بالألمانية والفرنسية وله حضور بالإنكليزية كبير ، وهناك تداخل من الصعب تحديده بدقة فمثلا تجد تمام حسان ذو الثقافة الانكليزية ينهل أفكار من الاستشراق الفرنسي نتيجة اطلاعه عليها في الدرس الانكليزي وحتى الدكتور مهدي المخزومي له آراء مطورة من المستشرقين رغم عدم دراسته في الغرب، ويبدو للباحث أن إبراهيم مصطفى برغم ثقافته التراثية، وتركيزه على آراء ابن مضاء القرطبي كان مطلعا

على آراء المستشرقين في المجال النحوي، وكان تأثيره على تمام حسان أيضا واضحا برغم أنَّ تمام حسان أكثر العرب اغترافا من الاستشراق بتنوع مدارسه ، وهذه تحسب له لكثرة مطالعاته ،وتفهمه للتراث الذي أجاد التطبيق فيه ، وعرضه ضمن النظرية العربية، وهذا الاطلاع نجده عند إبراهيم أنيس الذي أخذ من المستشرقين من غير الاشارة الى المصدر، وما حمل آراء المستشرقين وأحدث ضجة في العالم العربي كتاب طه حسين في الادب الجاهلي الذي تبنى أفكار المستشرق (ماركليوث) ، وقد جاءت الدراسة في مبحثين: المبحث الأول: المدرسة الانكليزية للاستشراق ونبذة مختصرة لأبرز روادها والعاملين في هذا المحور ، والمبحث الثاني تناول اللغوين العرب الذين كان للاستشراق الانكليزي حصة الاسد في تكوينهم المعرفي.

المبحث الاول: المدرسة الانكليزية للاستشراق ونبذة مختصرة لأبرز روادها .

أولا: نبذة مختصرة عن أعلام المدرسة الإنكليزية للاستشراق

1 – أدلارد أوف باث (1070 – 1135) من أوائل الإنجليز الذين تعلَّموا العربية، وقد عُنِي بها عنايةً كبيرة، ودرس في صقلية، والأندلس، ومصر، ولبنان، وأنطاكية، واليونان، وتثقَّف بثقافة العرب إلى أقصى حدٍّ ممكن، حتى فضَّل مذهبهم العلمي والبحثي على المناهج الأخرى جميعًا[1].

2 – ويرى البعض أن أبا الدراسات العربية في بريطانيا هو(وليم بدول) (1561م – 1632م)، خريج جامعة كمبريدج، وأستاذ العربية فيها، وكتب مقالة رائعة عن ضرورة دراسة العربية، وأسهب في ذكر قيمتها [2]العلمية والأدبية .

3 – ومن الشخصيات الهامَّة: (دانيال أوف مورلي)، الذي ذكر عن نفسه ؛ أنه غير راضٍ عن الجامعات الفرنجية ، فذهب إلى إسبانيا ليبحث عمَّن هم أكثر حكمة من فلاسفة العالَم، ومما يجدرُ ذكره أن أول كتاب طُبِع في إنجلترا هو كتاب: (كلمات الفلاسفة وحِكَمهم)، وكان مؤلَّفًا على نسق كتاب عربي اسمه: (كتاب مختار الحكم ومحاسن الكلم)، الذي كان قد ألَّفه الأمير المصري مبشر بن فاتك [3].

(1) يُنظر: مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي 207.
(2) يُنظر: معجم أسماء المستشرقين ، يحيى مراد : 23.
(3) يُنظر: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا: ميشيل جحا: 33.

4 – ومن الشخصيات البارزة الأخرى «إدموند كاستل» (1606 – 1685)، وهو من أوائل أساتذة اللغة العربية في كمبريدج، ومن أشهر مؤلَّفاته (قاموس مجمل للغات السامية)، قضى في جمعه ثماني عشرة سنة، ونُشِر للمرة الأولى عام 1669[1] .

وقد بدأ الاهتمام بالدراسات الشرقية الأكاديمية في بريطانيا باكرًا؛ وذلك عندما أسَّس السير (توماس آدمز) كرسيَّ الدراسات العربية في كمبريدج عام 1632م، وقد أسَّس كرسيًّا آخر في أكسفورد عام 1636م، وهناك ترابط واضح بين تزايد الاهتمام البريطاني بشبه الجزيرة الهندية – بعد حرب السنوات السبع (1756 – 1763) – وأفولِ النفوذ الفرنسي هناك، وزيادةِ الاهتمام بالمنطقة العربية، وبالتالي الدراسات العربية، فمع انجلاءِ موقع الهند كتاجِ المستعمرات البريطانية أصبح هدفُ لندن الاستراتيجي هو الحفاظ على خطوط الاتصالات مع ذلك (التاج) والطرق المؤدية إليه ساخنة وأمينة وغير متقطعة، وتحديدًا طريقي البحر الأحمر والخليج، ومن هنا فإن بريطانيا انخرطت بشكل أكبر في المنطقة العربية وبكل المجالات، ذلك أن تلك المنطقة هي المعبَر الطبيعي للهند، وكان الأسطول البريطاني مسيطرًا على الخليج العربي، وكذا عدن كمحطات له؛ وتدخَّل في الشؤون الداخلية للمشيخات هناك، على حساب النفوذ الفرنسي الآفل؛ لضمان خطوط الاتصالات مع الهند.

واحتلَّت بريطانيا عمليًّا مناطقَ من الخليج وعدن، ثم لاحقًا مصر (1881 – 1882)؛ للسيطرة على قناة السويس والعراق أيضًا، تحت ذرائع الوصول الآمن إلى الهند، وأثناء كل هذا النشاط العسكري والسياسي الذي لا يهدأُ؛ تطوَّرت أجيالٌ من المستشرقين البريطانيين الذين انخرطوا في جهد الإمبراطورية الاستعماري في المنطقة بشكل أو بآخر، وفي الحالات القصوى عَمِل بعض هؤلاء يدًا بيدٍ مع أجهزة الاستخبارات البريطانية؛ لتحقيق مهمات سياسية وأمنية، ومن الأمثلة على ذلك؛ بروفيسور اللغة العربية واللغات الآسيوية في كامبريدج: «بالمر»، الذي أتقن العربية البدوية، والفارسية، والهندوسية، وهو في العشرينيات من عمره، وقد أرسله رئيس الوزراء البريطاني آنذاك «جلادستون» في مهمة إلى بدوِ مصر، من أجلِ قطع عَلاقاتهم مع العناصر الوطنية وحركة عرابي باشا، وكان يعمل مع قائدِ الجيش البريطاني في مصرَ، لكن كانت نهايتُه على يدِ البدو المصريين أنفسِهم الذين قتلوه، ومعه زمرة من العسكريين البريطانيين سنة 1882.

(1) المصدر نفسه:34.

ثم ازدهرتِ الدراسات الاستشراقية، لا سيما بعد حملة نابليون على مصر عام 1798م؛ حيث تلا ذلك اهتمامُ الإنجليز بمَيْدان الاستشراق نتيجةَ طابعِ المنافسة التي اتَّسم بها العصر بين الدولتين آنذاك، وقد تناول الاستشراق البريطاني سائرَ مناحي المعرفة الشرقية؛ من لغات، وآداب، وعلوم، وفنون، وتاريخ، وآثار، وكان على رأس المهتمِّين بالدراسات العربية: (سيمون أوكلي) الذي تولَّى مهمَّة تدريس اللغة العربية في جامعة كمبريدج 1711، وألَّف كتابه الشهير: (تاريخ المسلمين)، الذي تناول التاريخ الثقافي والسياسي للإسلام[1] .

1 – ويأتي من بعده (جورج سال) (1697م – 1736م) ، الذي تَرجَم القرآن الكريم، وأصبحت ترجمتُه المرجعَ الأساسيَّ للترجَمات الواردة بعدها لسنين عديدة، كما خلفت هذه الترجمة حركة واسعة للتعرُّف على الثقافة الإسلامية، وبيان خصائصها الإيجابية، والتعرف بصورة موضوعية على نبي الإسلام، والجدير بالذكر أن هذه الدراسات كانت مَشُوبة بالخيال والأسطورة حول شخصية الرسول – صلى الله عليه وآله سلم[2].

2 – ومما ساعد على نموِّ وازدهار الدراسات الاستشراقية في بريطانيا: تكوينُ الجمعيات والمجلات المتخصصة، وظهورُ عددٍ من المتخصصين في الدراسات الاستشراقية؛ مثل (إدوارد وليم لين) (1801 – 1876)، صاحب كتاب: (في أخلاق وعادات المصريين الحديثين) ، وهو من أهم مستشرقي إنجلترا وأوروبا في القرن التاسع عشر، وقد ترجم أيضًا: ألف ليلة وليلة إلى الإنجليزية بدقَّة.

3 – ومن بعده جاء (إدوارد هنري بالمر) (1840 – 1882)، الذي عكف على دراسة اللغة العربية، وكان يقول عنها: إنها أحبُّ اللغات إلى نفسه، ومن العلماء البارزين في حقل الدراسات العربية: (وليم رايت) (1830 – 1889)، الذي درس اللغة العربية، وعَمِل مدة في مدينة ليدن Leiden الهولندية مع المستشرق الهولندي الشهير دوزي، وعيِّن أستاذًا للغة العربية في جامعات لندن، ودبلن، وكمبريدج، وقام بتحقيق كتاب: (الكامل للمبرد)، و(رحلة ابن جبير)، وخلف رايت في كرسيِّ أستاذِ اللغة العربية بجامعة كمبردج روبرتسون سمث (1846 – 1894)، وهو مستشرق اسكتلندي، درس العربية في جامعة (أدنبره)، وانتخب رئيسًا للجنة دائرة المعارف البريطانية، ومن أهم أعماله:

(1) مدارس الاستشراق .. المدرسة البريطانية د. أنور محمود زناتي: موقع إلكتروني/ موقع الألوكة.
(2) المصدر نفسه.

أديان الساميين، أنساب العرب[1].

4 – وريتشارد بيرتون (1821 – 1890)، الذي درس العربية في جامعة أكسفورد، وقد زار مناطق عديدة في الوطن العربي، وخاصة الجزيرة العربية، وقد عمل ضابطًا عسكريًّا في الهند، ثم عمل في خدمة بلاده في مصر، وقام برحلات في الجزيرة، ونشر وصفًا لها في كتابه: (الحج إلى المدينة ومكة)[2].

ثانيا: الشخصية الفاعلة التي كان لها التأثير الكبير على اللغويين العرب ولاسيما عميد الأدب العربي :(ديفيد صموئيل مرجوليوث 1858م – 1940م)

بدأ حياتَه العلمية بدراسة اليونانية واللاتينية، ثم اهتمَّ بدراسة اللغات السامية فتعلَّم العربية؛ ومن أشهر مؤلفاته: ما كتبه في السيرة النبوية، وكتابه عن الإسلام، وكتابه عن العلاقات بين العرب واليهود، ولكن هذه الكتابات اتَّسمت بالتعصب والتحيز، والبعد الشديد عن الموضوعية؛ كما وصفها عبدالرحمن بدوي (في موسوعته عن الاستشراق)، ولكن يحسب له اهتمامه بالتراث العربي؛ كنشره لكتاب: معجم الأدباء لياقوت الحموي، ورسائل أبي العلاء المعري، وغير ذلك من الأبحاث[3].

وقبل الحديث عن المستشرق الإنكليزي يجدر بنا أن نشير إلى أن بعض هذه الأفكار التي طرحها كانت قد ذكرها وعالجها ابن سلام الجمحي وليست من ابتكارات (مرجوليوث).

يُعدّ ابن سلام الجمحي أوّل من أثار في إسهاب مشكلة الانتحال في الشعر الجاهلي في كتابه: (طبقات فحول الشعراء)، وقد ردّها إلى عاملين : عامل القبائل التي كانت تتزيّد في شعرها لتتزيد في مناقبها، وعامل الرواة الوضاعين [4] .

يقول ابن سلام: ((لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلّت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أنْ يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعدُ فزادوا في الأشعار))[5].

(1) المصدر نفسه.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.
(4) العصر الجاهلي : للدكتور شوقي ضيف :164.
(5) طبقات فحول الشعراء: لابن سلام الجمحي (ت231هـ) :39.

وقد لفتت هذه القضية ، قضيّة انتحال الشعر الجاهلي أنظار الباحثين المحدثين من العرب والمستشرقين ، وبدأ النظر فيها من المستشرقين، وأول من تناول هذه القضية المستشرق الالماني (نولدكه سنة 1864م)، وتلاه (ألوَرْدْ) عندما نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعلقمة وعنترة ، فتشكك في صحّة الشعر الجاهلي عامة ، منتهياً إلى أنّ عدداً قليلاً من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته ، مع ملاحظة أنّ شكّاً لا يزال يلازم هذه القصائد الصحيحة في ترتيب أبياتها وألفاظ كلّ منها[1].

إلا أنّ مرجليوث يعدّ أكبر من أثاروا هذه القضية في كتاباته ؛ إذْ كتب فيها مقالاً مفصلاً نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعدد يوليو سنة 1925م، جعل عنوانه: (أصول الشعر العربي)، ومن أبرز ما أثار مرجليوث في مقاله المذكور : لو أنّ هذا الشعر صحيح لمثّل لنا لهجات القبائل المتعدّدة في الجاهلية كما مثل لنا الاختلافات بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية في الجنوب .

ولقد ردّ عليه الدكتور شوقي ضيف مدحضاً زعمه ، قائلاً : ((إنّ لغة القرآن الفصحى كانت سائدةً في الجاهلية وإنّ الشعراء منذ فاتحة هذا العصر كانوا ينظمون بها وكانت لهجة قريش ، وسادت بأسباب دينية واقتصادية وسياسية ؛ فكان الشعراء ينظمون بها متخلين عن لهجاتهم المحلية على نحو ما يصنع شعراء العرب في عصرنا على اختلاف لهجات بلدانهم وأقاليمهم))[2] ويبدو للباحث أن سبب توحد اللهجات عائد إلى الرواة ولاسيما اللغويين الذين كانوا يحرصون على توحيد القواعد والتركيز على لهجت قريش بدافع ديني ، وكذلك للسلطة دورها في هذا العمل. .

ومن بين مزاعم مرجليوث في هذا الموضوع: أنّ النقوش المكتشفة للممالك الجاهلية المتحضرة وخاصة اليمنية لا تدل على وجود أيّ نشاط شعري فيها ، فكيف أتيح لبدو غير متحضرين أنْ ينظموا هذا الشعر بينما لم ينظمه من تحضروا من أهل هذه الممالك؟ ودحض (بروينلش) هذا الدليل ؛ لأنّ نظم الشعر لا يرتبط بالحضارة ولا بالثقافة والظروف الاجتماعية ، وهناك فطريون أو بدائيون لهم شعر كثير مثل الإسكيمو[3]، وهذا الرأي جدير بالاحترام ،لأن البيئات المنعدمة والفقيرة هي أكثر إبداعا

(1) العرب في **العصر الجاهلي** تأليف: الدكتور ديزيره سقال : 166.
(2) العصر الجاهلي : 166.
(3) المصدر نفسه : 167.

وإنتاجا في الموضوعات الانسانية وخير دليل على ذلك ما تنتجه فلسطين من شعراء مقارنة بدول الخليج التي هي أكثر ثراءً .

المبحث الثاني: المتأثرون بالمستشرقين من العرب

1 – طه حسين (1889–1973م)

وإذا تركنا المستشرقين واتجهنا صوب العرب المحدثين والمعاصرين وجدنا أديب العربية مصطفى صادق الرافعي يعرض هذه القضية : قضية الانتحال في الشعر الجاهلي عرضاً مفصّلاً في كتابه: (تاريخ آداب العرب) الذي نشره في سنة 1911م، ولكنه لا يتجاوز في عرضه ما لاحظه القدماء ، وخلف مصطفى صادق الرافعي الدكتور طه حسين فدرس القضيّة دراسة مستفيضة في كتابه : (الشعر الجاهلي) الذي أحدث به رجّة عنيفة أثارت كثيرين من المحافظين والباحثين فتصدوا للردّ عليه، ولم يلبث أنْ ألّف مصنفه: (في الأدب الجاهلي) الذي نشره في سنة 1927م ، وفيه بسط القول في القضية بسطاً أكثر سعة وتفصيلاً [1].

وأهم نتيجة التي أودعها في هذا الكتاب يلخصها بقوله: ((إنّ الكثرة المطلقة ممّا نسميه أدباً جاهليّاً ليست من الجاهلية في شيء ، وإنما هي منتحلة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثّل حياة الجاهليين. وأكاد أشك في أنّ ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جدّاً ، لا يمثل شيئاً ولا يدل على شيء ، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي))[2].

ومضى طه حسين يبسط الأسباب التي تدفع الباحث إلى الشك في الأدب الجاهلي واتهامه ، وردّها إلى أنّه لا يصور حياة الجاهليين الدينيّة والعقلية والسياسيّة والاقتصادية، كما أنه لا يصوّر لغتهم وما كان فيها من اختلاف اللهجات ، وتباينها بلهجاتها من اللغة الحميرية.

يقول الدكتور شوقي ضيف معقبا على ما عرضه عميد الادب العربي : ((والحق أنّ الشعر الجاهلي فيه موضوع كثير ، غير أنّ ذلك لم يكن غائباً عن القدماء ، فقد عرضوه على نقد شديد ، تناولوا به رواته من جهة، وصيغه وألفاظه من جهة ثانية، أو بعبارة

(1) المصدر نفسه : 170.
(2) في الأدب الجاهلي : طه حسين: 64.

أخرى عرضوه على نقد داخلي وخارجي دقيق ، ومعنى ذلك أنهم أحاطوه بسياج محكم من التحري والتثبت فكان ينبغي أن لا يبالغ المحدثون من أمثال مرجليوث وطه حسين في الشك فيه مبالغة تنتهي إلى رفضه ، إنّما نشك حقّاً في ما يشك فيه القدماء ونرفضه ، أما ما وثقوه ورواه أثباتهم من مثل أبي عمرو بن العلاء والمفضل الضبّي والأصمعي وأبي زيد فحريٌّ أنْ نقبله ما داموا قد أجمعوا على صحته، ومع ذلك ينبغي أنْ نخضعه للامتحان وأنْ نرفض بعض ما رووه على أسس علميّة منهجية لا لمجرّد الظن ، كأنْ يُرْوَى لشاعر شعرٌ لا يتصل بظروفه التاريخية ، أو تجري فيه أسماء مواضع بعيدة عن موطن قبيلته، أو يضاف إليه شعر إسلامي النزعة ، ونحو ذلك مما يجعلنا نلمس الوضع لمساً))[1]، وقد نقلنا هذا النص على ما فيه من الإطالة لنثبت أن الذين ردوا على طه حسين كان ردهم يعتمد على العاطفة والتمسك بما وصل إليه القدماء ، هذا لا يعني الباحث يذهب إلى ما ذهب إليه طه حسين ، ولكن رأينا رد بعض المستشرقين انضج وأقوى حجة. ومن مثال هذه الردود رد المستشرق(بروينلش) المذكور سابقًا ، **إن تواجد المستشرقين في الجامعات المصرية كان لهم** التأثير الكبير، ولا ننسى مشاركة الاستشراق بنهضة الأدب العربي وهذا باعتراف الدارسين والباحثين، فقد اهتم المستشرقون اهتماما كبيرا بتاريخ الأدب العربي، حيث قُسم تاريخ الأدب العربي حسب العصور السياسية المختلة–نظام الحكم– وما قام به القدماء العرب هو تصنيف الأدباء حسب مواليدهم أو حسب وفاتهم وفي بعض الأحيان حسب أنواع مواضيعهم المختلف.

وكان طه حسين في طليعة المتأثرين بالمنهج الجديد في الدراسات الأدبية للمستشرقين، وكان تأثره هذا عميقاً إلى درجة أنه كان كثيراً ما يأخذ بآراء المستشرقين ويتحمس في الدفاع عنها في مجال إصدار الأحكام حول الأدب العربي القديم وخاصة الجاهلي منه، بل إننا نستطيع أن نقول دون أدنى مبالغة أن طه حسين لم يكن في الحقيقة سوى ثمرة من ثمرات الاستشراق، ومُبشر بالمبادئ والأصول التي دعا إليها المستشرقون في مجال دراسة الأدب، وعلى صعيد الرؤية العامة للأدب العربي الكلاسيكي في عصوره المختلفة، ولعل تأثره بالمستشرق (صموئيل مرجليوث(الذي نفى أنْ يكون الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا معبراً عن العصر الجاهلي وإنما هو في رأيه نتاج مرحلة تالية لظهور الإسلام[2].

(1) في الأدب الجاهلي : 65.

(2) ، دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي : 34

ومن جملة الآراء التي أبداها طه حسين حول الأدب العربي القديم من واقع تأثره بآراء المستشرقين، القول بأن الجزء الأكبر من الشعر الجاهلي إنما هو في الحقيقة شعر منتحل، وقد أطلق هذه الفكرة قبله المستشرق الإنجليزي مرجليوث قائلاً: ((بدأ المسلمون في حوالي نهاية العصر الأموي يدعون وجود شعر جاهلي عربي، ولم يكتفوا بذلك حتى زعموا أنهم جمعوا الجزء الأعظم منه...)) [1]، ويبدو للباحث أن هذا الرأي لا يستند إلى دليل علمي كما قدم لنا دليل مقارنة لغة الشعر الجاهلي مع لغة القرآن مع قوله إن الفارق بين لغة القرآن والشعر كبير جدا .

وقد بلغ من تحمس طه حسين لمناهج المستشرقين في البحث الأدبي، والاستنتاجات التي توصلوا إليها في هذا المجال أنه قال ما نصه: ((وكيف نتصور أستاذاً للأدب العربي لا يَلم ولا ينتظر أن يلم بما انتهى إليه الفرنج من النتائج العلمية حين درسوا تاريخ الشرق وآدابه ولغاته المختلفة؟ وإنما يُلْتَمَس العلمُ الآن عند هؤلاء الناس، ولا بد من التماسه عندهم حتى يتاح لنا نحن أن ننهض على أقدامنا، ونطير بأجنحتنا، ونسترد ما غلبنا عليه هؤلاء الناس من علومنا وآدابنا وتاريخنا...)) [2].

لو قارنّا بين ما أثاره طه حسين وبعض المستشرقين أمثال(مرجليوث ونولدكه)؛ لوجدنا أنّ هناك تقارباً بل اتفاقاً ملحوظاً مع أن ابن سلام الجمحي كان قد أثار القضية حول بعض الشعر وليس نفيه جميعا .

2- إبراهيم أنيس(1906-1977م)

المعروف أن إبراهيم أنيس ذا الثقافة الانكليزية والتخصص في الساميات قد اطلع على اكثر آراء المستشرقين وخاصة في علم الأصوات، ويعد أول من كتب في علم الاصوات وتطبيقها على العربية ونقل مفهوم المقطع ودرسه ونظر له في جذور التراث العربي.

اعترف في مقدمه كتابه (من أسرار اللغة) بتأثير دراسات الغربيين ، ودراسات اللغة بعد اتصاله بدارسات المستشرقين للغات المستشرقين على منهجه ودارسته السامية، ودراسات الغربيين للغاتهم الحديثة والقديمة ، وتأثرهم بمناهجهم وأفكارهم ، بل يصطلح على بعض المسائل اللغوية بـ (المشكلة اللغوية) إلى الحاجة إلى المزيد من الدراسة، وأعاد الدراسة

(1) ، نشأة الشعر العربي، ديفيد صمويل مرجوليوث 90- 91.
(2) ،في الأدب الجاهلي ، طه حسين: 11

والتحقيق فيها وفق ما توصل إليه الغربيون والمستشرقون من نتائج في هذا الشأن [1].

وذهب إبراهيم أنيس إلى إنكار أصالة الإعراب ، وكان متأثرا بالمستشرقين، أمثال : فولرز وباول كاله وأتباعهم . فكما هو معروف أن «إبراهيم أنيس» حصل على الدكتوراه في الدراسات اللغوية السامية من جامعة لندن عام)1941م ، وهو العام نفسه الذي قدم فيه «باول كاله»[2](*) محاضراته في الأكاديمية العربية البريطانية، ومهمة هذه الأكاديمية نقل زات التعليم العالي في بريطانيا من قبيل جامعة لندن ، جامعة كامبرج ، جامعة كارديف ، جامعة بورك ، جامعة مانشستر وجامعة أكسفورد إلى الوطن العربي، وتحرص على ذلك فتجدها تعمل على تعريب العلوم التطبيقية والنظرية والإنسانية وتسهل عملية تقديمها للباحثين العرب بأيسر السبل وبشكل مجاني ، وهنا يتضح المقصود ، ولاحظ أحد الباحثين المعاصرين في منهج «إبراهيم أنيس» الوصفي أثناء تلقيه غالباً للنظريات الوصفية الغربية ، أنه عندما يأخذ عن الدارسات الغربية يحيل إحالات عامة مثل الدراسات الحديثة(أو)البحوث الحديثة(أو) المحدثين ،ويبدو أن سبب ذلك هو تسليمه بتلك النظريات ، وهو جانب من جوانب تأثره[3].

3 – تمام حسان (1918–2011م)

باحث عربي تميز عن الباحثين العرب المحدثين بثقافته المزيجة بين التراث والمعاصرة ، أكمل دراسته الأولية في مصر وتتلمذ على يد الاستاذ محمد هاشم عطية ، ثم تهيأت له فرصة الدراسة في لندن وهناك حصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة لندن وكان أستاذه الأول (فيرث)[4](27)، وعندما عاد إلى مصر عاد متأثرا تأثرا كبيرا بأفكار أستاذه فيرث مطبقاً لها على اللغة العربية. ما استهوى تمام حسان هو المنهج الوصفي ذو الأصول الغربية، إذ دعا إلى تطبيق المنهج الوصفي الغربي الحديث ، الذي بذر بذرته (دو سوسير) وسار على هدية (فيرث) صاحب النظرية السياقية في اللغة ، والتي تلقاها تمام حسان منه مباشرة. [5]

وإن تمام حسان شأنه شأن غيره من الباحثين المحدثين الذين أخذوا بالمنهج الوصفي

(1) ينظر: من **أسرار اللغة : إبراهيم أنيس** :6
(2) دراسات في فقه اللغة، صبحي صالح : 140–126.
(3) يُنظر: الوصفية في الدارسات العربية الحديثة : 54.
(4) يُنظر: آراء تمام حسان في نقد النحو العربي :11–10.
(5) النحو الوصفي بين د. مهدي المخزومي و د. تمام حسان : 127.

الذي انتشر في الدراسات العربية على يد المستشرقين ، يدفعه التأثر أولاً ، ونبذه للأفكار الفلسفية والمنطقية والعلل والعوامل في الدرس النحوي العربي ثانياً ،وكان السبب في نزوع اللسانيات البنيوية العربية إلى نقد النحو العربي ؛ هو تأثرها باللسانيات البنيوية في الغرب ونقدها لنحوها التقليدي .

وبما أن مقولة الوصفية جاءت رد فعل في الغرب على سيطرة المعيارية في الدراسات اللغوية التقليدية في البحث اللساني الغربي ، فكذلك البحث اللساني العربي سار على النهج نفسه مطبقاً للوصفية ومتأثراً بهذا المنهج في نقده للدراسات العربية القديمة.[1] والملاحظ أن ((ثمة مفارقة لغوية وقع فيها الوصفيون العرب – تمام حسان أحدهم – وهي أنهم حين يؤلفون في اللسانيات يكتبون مصنفات في نقد النحو العربي القديم وفي إعادة وصف اللغة العربية القديمة ، ولا يفكرون انطلاقا من أسس مدرستهم – بأنهم معنيون بدراسة اللغة العربية المعاصرة وحل مشاكلتها))[2].

ويرى مهدي المخزومي ما ذهب إليه بعض الباحثين في اللغات السامية المقارنة من المستشرقين الذين طرقوا هذا الموضوع بالبحث ، وعلى رأسهم (وليم رايت) أن الصيغ الفعلية المفردة في العربية صيغتان اثنتان فقط : إحداهما تعبر عن حدث تام , والأخرى : تعبر عن حدث غير تام، ولكنّ هاتين الصيغتين إذا وضعهما المتكلم في سياق , سيتهيأ لهما بفعل العلاقات السياقية ما لم يتهيأ لهما في حالة الأفراد من أبعاد زمنية [3]، وقد أفاد المخزومي من هذا الرأي وقد طبقه في كتابة (النحو العربي قواعد وتطبيق)،والظاهر أن إثارة المستشرقين هكذا أفكار، وما طرحوه من آراء متعلقة بالفعل والزمن في كتبهم أثرت في الباحثين المحدثين ، مما جعلهم يعيدون النظر في ما توصل إليه النحاة القدامى في هذا الموضوع ، وأعادوا البحث فيه وفق ما طرقه المستشرقون من أفكار تقويما ونقدا ، ومن هؤلاء: تمام حسان ، ومهدي المخزومي ، وابراهيم السامرائي ، مالك المطلبي ، ومحمد المالح ، وكمال رشيد ، وغيرهم . لكنّ هؤلاء الباحثين أغفلوا الإشارة إلى المصادر الاستشراقية التي أخذوا عنها ، ومن أشار منهم ، فإن إشارته كانت معتمة وغير واضحة ، فتمام حسان ، هو أول باحث عربي فرق بين الزمن الصرفي والزمن النحوي للأفعال على الطريقة الإنكليزية مع تخطيها في عدد الأزمنة ، وأكد

(1) ينظر: : نشأة الدرس اللساني العربي الحديث :84.
(2) تمام حسان في معيار النقد اللساني : 84 2.
(3) يُنظر: في النحو العربي نقد وتوجيه : 152-145.

على ضرورة النظر إلى صيغ الفعل في السياق ؛ ليتم الكشف عن الزمن ، فما دام يمكن بالقرينة المفارقة بين الأزمنة المختلفة فيجب أن نختار ما يناسب من الصيغ ، وأصلحها للدلالة على الزمن المراد في سياق ما[1]، لكنه لم يشر إلى المصادر التي أخذ عنها ، أو استند إليها في عرض فكرته ، ولعل السبب الذي منعه من ذلك ، هو أنه وجد في نفسه المُخِرج الأول لتلك الأفكار في صورة مقبولة ، كان يسعى من ورائها إلى إلقاء ضوء جديدٍ على التراث اللغوي العربي مستعيناً بما اصطنعه الغربيون من منهج وصفي[2]، وبذلك يمكن القول إن تمام حسان كان يعي ضخامة النحو العربي لذا كان عمله حفريا من غير المساس بأحد أركانه وإن كانت أهم نظرية له نظرية العامل الذي أراد إبدالها بالقرائن وعدَّ العلامة الإعرابية واحدة من هذه القرائن.

الخلاصة

1 – إن بعض آراء المستشرقين كانت آراء لبعض اللغويين العرب ولكن البحث الدقيق والمتابعة الحريصة التي أحسن المستشرقون إبرازها أو نقل إثارتها والاعتماد عليها في اصدار أحكام بعضها غير مقبول .

2 – كثير من النظريات التي نسبت الى بعض العرب وخاصة لطه حسين وإبراهيم أنيس هي للمستشرقين ولكن الباحثيْنِ لم يشيرا إلى مصدرها لأنهما طبقوا هذه النظريات على التراث العربي وهذا يحسب لهما رغم تبجحهما بأصالة الافكار.

3 – سعة اطلاع تمام حسان وفهمه للنظرية السياقية وتأثره بعدد من المستشرقين حيث تعددت الرؤى لديه في مجمل كتبه، وإن أغفل الإشارة الى المستشرق وليم رايت الذي كان صاحب فكرة الفرق بين الزمن الصرفي والزمن النحوي .

4 – كثير من آراء المستشرقين صائب وفي محله.

5 – اهتمام المدرسة الانكليزية بالجوانب القصصية كي تصل إلى اثبات حقيقة مفادها أن الفكر العربي هو فكر خيالي بالدرجة الاولى، ترجمة قصة حي بن يقظان ، ألف ليلة وليلى ، الاسراء والمعراج.

6 – التشكيك بالشعر العربي والخصوص بالشعر الجاهلي.

(1) ينظر الزمن النحوي في اللغة العربية :55.

(2) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: 284.

المصادر والمراجع:

1. الاستشراق، سهيل قاشا: سلسلة كتب الثقافة المقارنة، ج2 بغداد 1987 .
2. تأثير المستشرقين في البحث الصرفي والنحوي عند العرب المحدثين رسالة ماجستير إعداد الطالبة نسرين عبد الرضا السعيدي ، إشراف الاستاذ الدكتور رعد هاشم ، جامعة ذي قار/ كلية التربية للعلوم الانسانية العام الدراسي 2015م–2016م.
3. تمام حسان في معيار نقد اللساني، د. مؤيد صوينت ، ود. خالد خليل عطية/ مجلة الأستاذ– العدد (203) 2012 م.
4. الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا: ميشيل جحا: معهد الأنماء العربي، بيروت 1982.
5. دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي عبد الرحمن بدوي ،دار العلم للملايين، بيروت،1986
6. دراسات في فقه اللغة، صبحي صالح، دار العلم للملايين. بيروت – لبنان. ط1.
7. دراسة في النشاط اللساني العربي. تأليف : فاطمة الهاشمي **بكوش**. – 2004م. القاهرة – مصر،ط1.
8. الزمن النحوي في اللغة العربية ، كمال رشيد ، دار عالم الثقافة للنشر .
9. طبقات فحول الشعراء: لابن سلام الجمحي (ت231هـ)، تحقيق محمود محمد شاكر ، ط.1 دار المعارف.
10. العرب في **العصر الجاهلي** تأليف: الدكتور ديزيره سقال الناشر: دار الصداقة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ط1.
11. العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ، . دار المعارف ط1.
12. في الأدب الجاهلي ، طه حسين لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة –1933م .
13. في النحو العربي نقد وتوجيه د. مهدي المخزومي منشورات دار الرائد **العربي** _ بيروت الطبعة الثانية _ 1986 م.
14. اللغة العربية معناها ومبناها. تأليف: **الدكتور تمام حسان**. الناشر: دار الثقافة.
15. مدارس الاستشراق .. المدرسة البريطانية د. أنور محمود زناتي: موقع إلكتروني/ موقع الألوكة
16. مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي: محمود محمد الطناحي ، مكتبة الخانجي، .
17. معجم أسماء المستشرقين ، يحيى مراد دار الكتب العلمية ،2004م،ط1 .
18. النحو الوصفي بين الدكتور مهدي المخزومي والدكتور تمام حسان دراسة في موارد الاتفاق والاختلاف بينهما /الأستاذ المساعد الدكتور حيدر جبار عيدان الباحث ضرغام علي محسن جامعة الكوفة – كلية الآداب.
19. نشأة الشعر العربي، ديفيد صمويل مرجليوث تر. عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، لبنان ط1/ 1979.